

مجلة كلية

الدعوة الإسلامية

لعدد السادس مجلة إسلامية - ثقافية - جامعة 1989م

شريعة المجتمع بين النظرية والتطبيق
المسالمون والخطرات
مقدمة لدراسة مناهج البحث العلمي
التصوير الفني للدعوة الإسلامية



نحو إقامة نظام للدبلوماسية الإسلامية



الكتور: عبد الله الأسفل
المستشار بقانوني لنظرة المؤتمر الإسلامي



نحاول في هذه العجالة أن نحدد معالم الدبلوماسية الإسلامية المعاصرة، ونتناولها بالدراسة وصولاً إلى اقتراح يكفل إقامة دبلوماسية إسلامية، وتمهيداً لذلك نقدم لمحات عن تطور مفاهيم وممارسات الدبلوماسية الإسلامية.

تطور مفاهيم الدبلوماسية الإسلامية وأغراضها:

الدبلوماسية هي بشكل عام فن إدارة العلاقات الدولية. ولقد استخدم اصطلاح الدبلوماسية الإسلامية عبر العصور بمعان متعددة، وكان يرمز إلى مدلولات مختلفة.

أولاً: فقد بدأت الدبلوماسية الإسلامية بممارسات الرسول عليه الصلاة والسلام وإيفاده الرسل بكتبه الداعية من حوله من ملوك وأمراء المناطق المجاورة للجزيرة العربية، للدخول في الإسلام. وخلال هذه الممارسات استقرت قواعد راسخة في العرف الدبلوماسي الإسلامي أبرزها حصانات الرسل والمبعوثين حتى أوقات الأزمات وتوتر العلاقات، حيث كانت حصانتهم ألزم وأولى وهم يسعون بالوساطة والتسوية السلمية لهذه الأزمات.

ثانياً: في العصور الإسلامية التي بدأت في مرحلة الخلافة الراشدة وأعقبت وفاة الرسول ﷺ اتسع نطاق الدولة الإسلامية وتعددت علاقاتها، وتنوعت قضايا هذه العلاقات، فكانت الدبلوماسية الإسلامية مصطلحاً يمكن إطلاقه على مجمل وسائل إدارة علاقات هذه الدولة سواء بينها وبين الدول والممالك غير الإسلامية، أو بين أجزاء الدولة نفسها خاصة في العصر العباسي، حيث ظهرت دويلات وإمارات وإن استقلت تماماً عن الخليفة العباسي، فقد ظلت تعتبره الرمز الشرعي للأمة الإسلامية ووحدها وتدعو له في خطب الجمعة والأعياد، وأحياناً تصك النقود باسمه، وغير ذلك من المعاملات ذات الطابع الرمزي.

ولقد تكونت خلال عصور الأمويين والعباسيين تقاليد في الممارسة الدبلوماسية أسهمت في إرساء قواعدها المعاصرة على نحو ما قرره إتفاقيتا فيينا للعلاقات الدبلوماسية 1961، والعلاقات القنصلية 1963، وإتفاقية فيينا للبعثات الخاصة عام 1969.

أغراض الدبلوماسية الإسلامية:

تعددت أغراض الدبلوماسية الإسلامية عبر العصور، فكانت الدعوة إلى الإسلام في الدبلوماسية النبوية ودبلوماسية الخلفاء الراشدين أبرز مقاصدها.

وكانت الدعوة لمن لم يؤمن، أو لمن دخل الزيف إلى قلبه فارتد، على ما هو معروف في فتن الردة التي كادت تعصف بالدولة الإسلامية وهي في مرحلة حرجة في علاقاتها الدولية.

ثم كان فداء الأسرى غرضاً آخرًا للدبلوماسية الإسلامية، ويحفظ لنا التاريخ أمثلة ظاهرة مما أثبتته المسعودي في كتبه، والمقرئزي في «خططه» والطبري في «تاريخه» وكانت كلها بين ممالك المسلمين وملوك الروم، والفرنج زمن الحروب الصليبية.

وعنيت الدبلوماسية الإسلامية أيضاً بالتجسس على العدو خاصة في عهد الفتوح الإسلامية. وفصل الوزير نظام الملك في كتابه «سياسة نامه» مختلف الأنشطة التجسسية التي شملتها مهمة المبعوثين والرسول. ولذلك كان الشك متبادلاً بين الدول الإسلامية وغير الإسلامية في هؤلاء الرسل، وكان يستحيل الفصل بين مهمتهم الدبلوماسية العادية ومهمتهم التجسسية، وكان الخلط واضحاً حول أحقية الرسول للحصانة إنْ تكشفت للدولة المضيفة أوجه نشاطاته غير الدبلوماسية، وهذا هو الأصل التاريخي للحوادث اليومية في

علاقات الدول الشيوعية والغربية اليوم حيث يتم ابعاد بعض أعضاء بعثاتهم الدبلوماسية ممن تكشف أنهم اتخذوا من وضعهم الدبلوماسي ستاراً يخفي أنشطتهم التي عادة لا تتفق مع مهامهم الدبلوماسية.

كذلك كانت من مهام الدبلوماسية الإسلامية تنشيط المبادلات التجارية، وكان يسمح لرسل الدول الأخرى بممارسة أنشطة تجارية في الأقاليم الإسلامية، وتطور هذا الأمر عبر العصور حتى صارت البعثات التجارية المتخصصة جزءاً هاماً من البعثة الدبلوماسية.

وعنيت الدبلوماسية الإسلامية بالإخبار بدخول بعض الأمم الإسلام كما حدث عندما دخل ابن هولاكو الإسلام وطلب الصلح مع السلطان الناصر قلاوون، وإخبار الملوك المسلمين للخليفة بفتوحاتهم وامثلة ذلك متعددة سجلها الأعشى في صناعة الانشاء، وكذلك تضمنتها الكتب الشهيرة في هذا الباب مثل النجوم الزاهرة والروضتين وغيرهما.

وانشغل الرسل المسلمون بترتيب المحالفات المعقودة بين هارون الرشيد وشارلمان، وتحالف عبد الرحمن «الداخل» مع ملوك بيزنطة الشرقية. وتحالف صلاح الدين مع الامبرطور البيزنطي وتكاتب حكام المسلمين يستنفرون بعضهم البعض للنجدة والتناصر ضد أعدائهم من المغول والتتار والصليبيين والفرنج.

كذلك كان من أهداف الدبلوماسية الإسلامية طلب الزواج، وحمل الخلع وعقد الهدنة والمعاهدات والوساطة في الخلافات وأهمها محاولات الخلفاء العباسيين للتوسط في فض المنازعات بين الأمراء والملوك المسلمين، وقيام بعض ملوك المسلمين بذات المهمة لإصلاح ذات البين بين اقربائهم واخوانهم.

وكثيراً ما كان طلب ملوك المسلمين إلى الخليفة تقليدهم وتفويضهم موضوع إهتمام الرسل المسلمين إلى الخليفة.

وعُني المسلمون بالسفارات الثقافية التي استهدفت إقامة حوار حضاري شامل مع الامارات غير الإسلامية يشمل شرح الدين، وتبادل المعارف والثقافات، وهي سفارات تعددت مقاصدها ولعب فيها علماء المسلمين ادواراً مشرقة في بناء صرح الحضارة الإسلامية ونقلها، مما يضيق عن تفصيله هذا المقام.

المفهوم السياسي للدبلوماسية الإسلامية :

استخدم مصطلح الدبلوماسية الإسلامية بمفهوم سياسي بوصفه خطأً او منهجاً في السياسة الخارجية وليس فقط أداة من أدوات تنفيذ اهداف هذه السياسة.

من ذلك : ١- إن الدبلوماسية الإسلامية جاز أن تطلق على خطط التنسيق والتضامن والتعاقد بين الإمارات والممالك الإسلامية وضد اعداء الأمة الإسلامية الذين تربصوا بها منذ قيامها. كما كان الإصطلاح يشير إلى سياسة دولة الخلافة، وإلى سياسات الدولة العثمانية منذ القرن السادس عشر.

٢- وكان الإصطلاح يشير أيضاً إلى منهج الدول غير الإسلامية في تعاملها مع القوى الإسلامية، فكان يصح أن يقال الدبلوماسية الإسلامية للملوك الروم، وللكنيسة، ولجمهورية البندقية مثلاً. وهذا المعنى يخرج عن نطاق بحثنا، ولكننا نشير إليه استكمالاً لجوانب الموضوع، واستقصاء لاستخدامات المصطلح عبر العصور.

ولعل من أمثلة هذا الجانب في العصور الحديثة ما كان يطلق على «الدبلوماسية الإسلامية» في سياسات روسيا والقوى الأوروبية منذ الفتوحات العثمانية في أوروبا في القرن الخامس عشر، ولعله أثير في مناسبات ذات دلالة خاصة ابرزها محاولات البلقان التخلص من سيطرة الدولة العثمانية الإسلامية إبتداءً بالثورة اليونانية والحروب البلقانية وقبول تركيا في أسرة الأمم الأوروبية **European family of nations** عقب صلح باريس 1856 الذي أنهى حروب القرم، والحرب التركية اليونانية 1896. وتعد كتابات بلنت **blunt** في اوائل هذا القرن عن «الدبلوماسية الإسلامية» في السياسة البريطانية التي استهدفت في جزء عظيم منها مناهضة الدعوة إلى الجامعة الإسلامية التي تحمس لها السلطان عبد الحميد، مثلاً لذلك. ثم كانت «الدبلوماسية الإسلامية» باباً هاماً في سياسات القوى الأوروبية إبان إلغاء تركيا للخلافة الإسلامية، وما أعقبها من تبلور ظاهرة المؤتمرات الإسلامية.

٣- ولقد يسوغ لنا أخيراً أن نطلق اصطلاح الدبلوماسية الإسلامية على مجمل العلاقات بين الدول الإسلامية نفسها في ظل الخلافة وإن لم يكن هذا المعنى شائعاً بسبب تردد الفقهاء المسلمين في الاعتراف بوجود دول إسلامية بما يؤثر على نظرية الأمة الإسلامية ونظرية وحدة العالم الإسلامي تحت لواء الخليفة.

77 _____ نحو إقامة نظام للدبلوماسية الإسلامية

تطور الفنون والنظم الدبلوماسية الإسلامية :

كان إتساع ارجاء الدولة الإسلامية وتنوع علاقاتها الدولية سبباً في تطور اساليب ونظم الممارسة الدبلوماسية الإسلامية . فنشأ ديوان هو بمثابة وزارة الخارجية وتخصص نفر ممن يجيدون صياغة المعاهدات والرسائل والوثائق الدبلوماسية وهو علم اسماه الأعشى صناعة الانشاء، كما نظمت إدارات للمراسم اختلفت تسميتها عبر الحقب المختلفة واستقرت قواعد التعامل مع السفراء والرسل وترتيبهم وتصنيفهم . وقد تولى السفارة خليط متنوع من السفراء من مختلف المهن والأعمال . فقد اختار الرسول ﷺ بعض كبار ذوي السابقة في الإسلام وحروبه أمثال اللخمي والكلبي والسهمي والأسدي . أما الأمويون فقد اختاروا السفراء من القضاة والعلماء والفقهاء والمتصوفة والوجهاء والرؤساء والوزراء والأمراء وكبار موظفي الدولة، إلى جانب الشعراء والتجار والأطباء . واشتهر من السفراء القضاة الشعبي والبالقاني والحموي وابن الزكي والقضاعي (المؤرخ) والشهرزوري، ومن العلماء والفقهاء ابن الجوزي وابن الربيع والسهروردي وابن حمويه والشيرازي .

صفات الرسل ومؤهلاتهم :

وكان طبيعياً - وقد اتسعت اعباء الدبلوماسية الإسلامية وتشعبت اغراضها - أن يعنى المسلمون بخصائص السفراء وكفاءاتهم . فاشتراطوا للسفير صفات جسمانية فيستحب فيه تمام القد وعدالة الجسم، وحسن الرواء والمنظر والتجمل «فالعادة ترمق الزي اكثر مما ترمق الكفاية والسداد» .

وحرصوا على توفر الصفات الخلقية العالية كنفاز الرأي وحصافة العقل والوقار والفظنة والفصاحة والطلاقة «فإن للبيان من السحر ما لا ينكر» وقوة الحجة والحلم وكظم الغيظ والأمانة والصدق ومجانبة الخمر والنساء . وتنبه المسلمون إلى العيوب القاتلة التي يجب أن يبرأ منها السفراء المختارون وهي الحدة والحسد والغفلة والعجلة والنميمة والضجر والعجب والهذر . ووجبوا في السفير خصائص ثقافية تليق بمقام الدولة الإسلامية التي يمثلها كأن يكون جامعاً «للفرائض والأحكام والسير (التاريخ) وأن يعلم أصول الخراج والحسابات وسائر الأعمال» . وقد كان المهاليك يبعثون للسفارة اكثر من شخص متخصص في شأن من تلك الشؤون حتى يتم التخصص والتكامل في البعثة نفسها .

الدبلوماسية الإسلامية المعاصرة بين الواقع والمأمول:

فوجيء العالم الإسلامي عندما ألقى كمال اتاتورك الخلافة الإسلامية. صحيح أنها كانت خلافة شكلية، بينما الطابع الإستعماري للحكم العثماني ظاهر لا ينكر كما أن الخلافة لم تشفع في حماية الدول الإسلامية من حركة الإستعمار العالمي، إلا أن المسلمين شعروا بنهاية الخلافة بإنفراط عقدهم وإنقشاع الإطار الذي كان يحوطهم. وبدأت سلسلة من المؤتمرات الإسلامية للبحث عن إطار بديل للخلافة، وأسفرت هذه السلسلة الطويلة التي بدأت بمؤتمر القاهرة عام 1926 حتى مؤتمر الرباط 1969 عن إنشاء إطار تنظيمي هو منظمة المؤتمر الإسلامي.

وجاءت الطفرة البترولية ثم الصحوة الإسلامية والتفت المسلمون في حماس يبحثون عن احياء لمجدهم السليب، وتشكلت لدى الدول الإسلامية قناعة بضرورة إدخال العامل الإسلامي ضمن عوامل تحديد سياساتها فيما بينها على الأقل، فنشطت الجهود لتأصيل الحياة المعاصرة في ضوء احكام الإسلام الحنيف فرحنا نقرأ عن علاقات دولية إسلامية وقانون إسلامي دولي وإدارة عامة إسلامية وغير ذلك مما يتوق المسلم إلى سماعه والفخر به. ومقابل ذلك كان النشاط المماثل من جانب الدول الأوروبية لمحاولة تحديد حجم هذه الانتفاضة وتقصي اسبابها ودوافعها وتحليل ما امكن من نتائجها المحتملة تحسباً لما تأتي به التطورات حتى رأينا حجم الدراسات حول هذه النقاط منذ حرب اكتوبر 1973 مروراً بالحوادث الإسلامية المعادية للولايات المتحدة الامريكية إبان الثورة الإسلامية في ايران وكذلك حادث اغتيال السادات ومن احداث عاصفة على امتداد العالم بأسره، يفوق في عقد زمني واحد تقريباً ما كتب خلال عقود عديدة سابقة.

وتقتضينا الأمانة أن نقرر إنه رغم الجهود المخلصة لدعم وحدة العالم الإسلامي وتشكيل دبلوماسية إسلامية يعتد بها، فلا تزال الدبلوماسية الإسلامية في مهدها لأن الإسلام لم يدخل بعد كعامل فعال من عوامل تحديد قرارات الدول الإسلامية السياسية. وإذا أردنا أن نقيم «دبلوماسية إسلامية» فلا مناص من وضع خطة شاملة لتشكيلها والعمل على مقتضاها.

ويتطلب وجود «دبلوماسية إسلامية» توفر العناصر الثلاثة التالية:

العنصر الأول: تنشيط أدوات وعوامل التنسيق السياسي والتضامن الثقافي والتعاون

نحو إقامة نظام للدبلوماسية الإسلامية

الإقتصادي بين الدول الإسلامية على أسس علمية تكاملية مدروسة ونأمل أن تثمر الجهود الراهنة في تحقيق هذا الهدف.

العنصر الثاني: توجيه برامج تدريب الملاكات الدبلوماسية الإسلامية بحيث يكون لانتباههم الإسلامي مسحة خاصة لا يخططها فيهم غيرهم، وهذا يتطلب إدخال العديد من التعديلات والإضافات على برامج التدريب الراهنة التي نعتقد أنها تلبي الاحتياجات الأساسية لإعداد دبلوماسيين معاصرين ولكن تنقصهم اللمسة الإسلامية المطلوبة.

العنصر الثالث: أن يعكس تنظيم وزارات الخارجية الإسلامية إنتهاءها الإسلامي وأن تدرس عدداً من الاجراءات للتعبير عن التقارب الخاص بين كافة الدول الإسلامية. ولا أقصد بذلك أن تقيم تمييزاً لصالح البعثات أو الدول الإسلامية وضد غيرهم من الدول الأخرى، ولكنني أريد وضعاً تمييزاً لصالح البعثات أو الدول الإسلامية وضد غيرهم من الدول الأخرى، ولكنني أريد وضعاً مدروساً يعكس روح الإسلام وقيمه من حيث أن المسلمين أمة واحدة، وإن المؤمنين منهم أخوة، وإنهم جميعاً كالجسد الواحد، وكل المسلم على المسلم حرام.

برنامج إعداد الملاكات الدبلوماسية الإسلامية:

يجب أن يكون البرنامج ذا مستويين أولهما عام لكل الملاكات والآخر خاص موجه بحيث يستجيب لحاجات المتقولين للعمل في بعثات بدول إسلامية، وأولئك المتبعثين في غيرها حسب المناطق السياسية والجغرافية. وبهنا برنامج المستوى الأول التجهيزي الموجه للكافة ممن يلتحقون بالعمل الدبلوماسي لأول مرة، لأنه الأساس في موضوعنا. فنحن نريد دبلوماسياً مسلماً معاصراً جامعاً لأدوات النجاح الدبلوماسي، خير ممثل لخير أمة أخرجت للناس ثقافة وعلماً وسلوكاً.

ولا أريد أن أدخل في تفاصيل قد تخل بالمقصود تحديده. لكننا نهدف إلى صياغة برنامج يكفل تزويد الطالب بمعلومات وافية عن بلاده وسياساتها خاصة في المجال الإسلامي، ثم بجرعة كافية من المعلومات عن العالم الإسلامي بشكل عام من كافة الجوانب الجغرافية والتاريخية والإقتصادية والإعلامية والدستورية ونظم الحكم والسياسة والأقليات الإسلامية، ووضع العالم الإسلامي على الخريطة السياسية للعالم المعاصر، وفي إطار البنيان الراهن للعلاقات الدولية ومؤسساتها ووسائلها والقوى الفاعلة فيها. وإذا شئنا

80 _____ مجلة كلية الدعوة الإسلامية (العدد السادس)

بعض التحديد دون التفصيل لجاز أن نقترح تدريس المواد التالية:

١- الدراسات الجغرافية: تشمل كافة فروع الجغرافيا الطبيعية والبشرية والسكانية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية الخاصة بالعالم الإسلامي.

٢- الدراسات التاريخية: وتشمل التاريخ العام والإسلامي بشكل خاص، والحركات السياسية الإسلامية والفرق والمذاهب ذات الطابع السياسي.

٣- الدراسات الفقهية: وتشتمل على دراسات قرآنية ودراسات في السيرة النبوية وعلوم السنة وأقوال المستشرقين وصورة المسلمين والإسلام لدى الشرق والغرب، وموقف الإسلام من المذاهب الفلسفية المختلفة، والفلسفة الإسلامية، ومقارنة الأديان.

٤- الدراسات السياسية: وتشمل النظم والأوضاع السياسية والدستورية الإسلامية منذ دولة المدينة، ونظم الإدارة والاقتصاد والحكم وغيرها.

٥- الدراسات القانونية والتنظيمية: وتشتمل على دراسة موسعة للتاريخ الدبلوماسي الإسلامي، والممارسات الدبلوماسية الإسلامية، وللقانون الدولي كما تصوره فقهاء المسلمين، ومحاولة استنباط قواعد معاصرة تتفق مع الوضع السياسي للعالم الإسلامي في النظام الدولي الراهن، والمنظمات الإسلامية الدولية، والقواعد الوضعية المعاصرة، خاصة فيما يتعلق بقواعد القانون الدولي الخاص العالمي والإسلامي.

هذا إلى جانب إجادة عدد من اللغات الحية، والتزود بالكثير من ثقافة هذا العصر وحضارته وفنونه. حتى تكون له ذخراً في النهوض بأعباء عمله المتنوعة وقضايا أمته الكثيرة وفي مقدمتها الذود عن دين الله ونصرتة واعلاؤه.